أباطيـــل الشيوعية
فى الـكراسة الرمادية

للأستاذ عبد الرحمن سلامه العطار
المدرس بالأزهر

نشرت صحيفة أخبار اليوم نص الكراسة الرمادية التى كتبها بعض الكتاب الروسيين طعنا فى الأديان جميعها ، وخصوا الدين الإسلامى من بينها بأكبر نصيب من السبـــاب والتجريح ، وقد وزعت على أفراد الشعب العراقى المسلم عن طريق سفارة الصين الشيوعية ، فأحدثت بين الشعب العراقى ثورة عارمة كانت سببا فى مذابح الموصل ، وكركوك ، وبغداد ، وراح ضحيتها شهداء أبرار أعزة من الجيش ومن الشعب مازال مصابهم فى قلوب المسلمين جرحا لم يندمل ، ودمعاً لم يرقأ !!!

وقد عكفت على قراءتها مرات عدة ، وأشهد أن شعرة واحدة منى لم تهتز فرقا على الآسلام بل على النقيض من ذلك لقد ازددت إيمانا به واعتزازا بتعاليمه السامية الخالدة ، ورسوخا بقرآن الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد كما اشتد يقينى بأنه خالد على الزمن ، باق مابقيت الدنيا لأن الله الذى أنزله ضمن له الحفظ والخلود : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ..

وقد قلت فى كلمة سابقة إن الشيوعية مذهب مادى قائم على انـكار الأديان جميعا ، والتنـكر للقيم الروحية العالية وإنها دعوة إلى الهمجية الأولى ، ورجوع بالإنسانية إلى حياة الغابة !

ولم تأت الـكراسة الرمادية بشىء جديد على هذا ، سوى ماأفعمت به من ألوان السباب والشتائم ، والتزييف لحقائق التاريخ الثابتة ، والترويج لآراء المنحلين المنحرفين عن الدين الذين لم تشرب نفوسهم حب الإيمان ، ولم تنعم قلوبهم بنورة !!!

وأصارح قارئى الـكريم أننى ترددت كثيرا فى الرد على هذا الـكتاب

الملعون !! فماذا نقوله لقوم أنكروا ذاتيتهم كأناسى وأهدروا آدميتهم كبشر ، وجعلوا قلوبهم فى أكنة مما يدعو إليه الإسلام ، وعصبوا عيونهم بعصابات حمراء تحول بينهم وبين ذلك الإشراق الإلهى . وعاشوا ليأكلوا فقط فهم بهذا أشبه بالحيوان منهم بالإنسان !!!

ولكنى عدت فتصورت قارئا فى أمية دينية أو شبه أمية قرأ شيئاً من هرائهم ، وافترائهم فعلقت به غشاوة مما يدعون إليه !!

ماذنب هذا المسكين الذى أضلوه على غير قصد ، وقتنوه على رغم منه ؟

فرثيت لحاله وشددت عزمى ، وشمرت عن ساقى للرد على هؤلاء علنى أغسل قلب هذا اللون من الناس من غثائهم ، وأفعمه نورا وحكمة . . وسأسير مع الكراسة الرمادية ، فقرة فقرة وفق ترتيبها لأنقضها حجرا حجرا . لأنها بناء هش متهاو لايقف صامدا أمام البحث العلمى ، بل يتداعى إلى السقوط والانتكاس إذا ووجه بحقائق التاريخ الثابتة ...

بدأ كتاب الكراسة الملعونة مفترياتهم بمقدمة قصيرة زعموا فيها أن الروس ارتقت اقتصادياتهم أخيرا حين نفضوا أيديهم عن الدين ، ونال العامل منهم جزاءه وذلك بفضل تعاليم ماركس ولينين .. !!

ونحن لايعنينا فى كثير ولا قليل أن نعرض للعمال الروس ، وماهم فيه من فاقة وضنك إذا قيسوا بالعمال فى أى شعب من الشعوب الإسلامية ، وأنهم ثاروا أخيرا فى وجه زعمائهم مطالبين بأحذية تقيهم الحفاء والبرد وأن حاجتهم إلى الأحذية أكثر من حاجتهم إلى الأقمار الصناعية إلى آخر ماهتفوا به ، فالروس أحـــرار فى أن يتبعوا أى نظام يشاءون ، شبع شعبهم أو جاع ، عز أو ذل . وإنما الذى يهمنا أن نوضحه أن الإسلام يأخذ بيد العامل أكثر مما يأخذ بيده أى نظام بشرى « شيوعى أو رأسمالى »

كما أن الإسلام نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى ، وليس دين عبادة فقط ، وإنما هو تنظيم شامل لجميع نواحى الحياة مما يوفو أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ولا تعارض تعاليمه الرقى الاقتصادى كما زعم الروس فى كتابهم « الملعون » .

بل إن الإسلام يعنى بالحث على العمل ، والسعى ابتغاء الرزق .

وتسخير جميع الامكانيات التى يسرت للإنسان فيما يعود عليه بالرفاهية ولا يرضى للمؤمنين به إلا أن يكونوا سادة أعزة . والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة متضافرة على تأكيد هذا المعنى . اقرأ من القرآن الكريم قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن » أى فى العمل « كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين

واقرأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل ابن آدم طعاما قط ، خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » وفى الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا على أن رسول الله صلى الله عليه الله عليه وسلم لم يأنف أن يشتغل أول حياته برعى الغنم ، وهو القائل : مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه وأنت يارسول الله ؛ قال « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » واشتغل فى شبابه بالتجارة فى مال خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فكان المثل الأعلى للتاجر الناجح صدقا ، وأمانة ، ومهارة حتى ربحت تجارته وتضاعف رأس مالها مما حمل السيدة خديجة رضوان الله عليها أن تخطبه لنفسها زوجا . ولم يرض القرآن الكريم للمؤمنين به الهوان والضعف بل وصفهم بالعزة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » على أن الإسلام يتبع فى نظامه الاقتصادى الاشتراكية المعتدلة وهى وسط بين نظامى « الشيوعية » ، والرأسمالية فهو يحوى خير مافى النظامين وما فى غيرهما ، وينبذ خبثه اتباعا لقاعدة الوسطية فلا إفراط ، ولا تفريط فالعدل مثلا وسط بين الظلم المطلق ، والرحمة المطلقة وهكذا كل فضيلة من الفضائل ، والإسلام وهو جماع الفضائل كلها وسط بين غلو اليهودية ، وتهاون النصرانية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

فالإسلام إذن لا يعوق التقدم الاقتصادى ، ولا يخدر شعوبه ، ولا يرضى لأهله الدون من العيش ،

بل يدفعهم إلى العمل دفعاً قوياً ، ويأخذ بيدهم نحو نظام اقتصادى منعدم النظير .

ويزعم أصحاب «الكتاب الملعون» أن الإسلام كغيره من الأديان ظاهرة تاريخية معرضة إلى تغييرات وتبديلات بحسب الظروف وأنه نشأ نتيجة عوامل تاريخية محضة لا تحتوى على شيء عجيب أوغير اعتيادى » !! ولا نجد أكذب على الله ، وعلى التاريخ من هذا البهتان فالإسلام ليس ظاهرة تاريخية ، ولو كان كذلك لباد فيما بادت فيه الظواهر التاريخية ، ولكنه بقى متألقا عبر السنين رغم ماتعرض له من غارات إلحادية لا تقل خطورة عن هجمات الشيوعيين الآن ، ومع هذا فإن الإسلام أبادها وبقى راسخا كالطود الأشم لا تزعزعه الأحداث ، ولا تنال منه الخطوب ..

أيذكر أصحاب الكتاب الملعون أن إخوانهم فى الفوضى والهمجية وهم التتار هجموا على المسلمين بخيلهم ورجلهم فى غفلة من الزمن واستطاعوا أن يسيطروا على بغداد وحاولوا جاهدين أن يأتوا على حضارة الإسلام من القواعد فأحرقوا كتبه ، وألقوها فى نهرى دجله والفرات حتى سدت مجريهما، وظنوا أن أمر المسلمين أصبح بأيديهم وأن الدنيا قد ألقت قيادها لهم ، ولكنهم مالبثوا أن انصاعوا وذابوا فى حضارة المسلمين وخرج الإسلام من هذه المحنة كالذهب الإبريز لاتزيده النار إلا تألقا ولمعانا ؟ !!

ولو كان الإسلام ظاهرة تاريخية بشرية لأبقى على المعتقدات التى كان لها فى نفوس العرب اجلال وإكبار ، أو على الأقل لجعل المحافظة عليها وسيلة من وسائل الدعاية له ، ولكنه كان صرخة مدوية فى آذان الوثنية بجميع صورها ، وكان بعثا جديدا للعقل الإنسانى والسمو بالإنسان أن يذل إلى غير الله . أو يخضع لطاغوت من طواغيت البشر كما يفعل الروس الآن فهم يؤلهون الدولة ، وتذوب عقول الشعب فى عقول زعمائه وفى هذا إهدار لآدميتهم ، وانتكاس لعقولهم لا يرضاه الإسلام لأتباعه . بل لايرضى للإنسان أن يسجد لغير الله : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » « فاعلم أنه لا إله إلا الله » .

ولو كان الإسلام ظاهرة تاريخية بشرية لنسبها محمد صلى الله عليه وسلم

إلى نفسه ، ولفاخرت قريش بها ضرورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم فى مكان الذروة من قريش ، ولانصاعت لهذا الدين من أول نداء صدع به محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الأمر كان على العكس من هذا فماوجد محمد رهقا ولا أذى من أحد مثل ماوجده من قريش وهم أهله وعشيرته حتى لقد قال لهم حين ظفر بهم : « بئس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ، ونصرنى الناس وذهب القرآن الكريم فى ذمهم إلى حد أن شبههم بالدواب « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » وسخر من آلهتهم : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها » ؟ ! !

ولقد حرص القرآن الكريم على تسجيل مركز محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الدين الكريم وأن وظيفته لا تعدو الرسالة والبلاغ : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « ما على الرسول إلا البلاغ » « إنما أنت منذر » « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » .

ويقول محمد صلى الله عليه وسلم لقريش : « إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة » بل لقد ذهب القرآن إلى أبعد من هذا كان يعاتبه فى موضع العتاب : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وماعليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكره »

ويرشده إلى العدل إذا التبس عليه الأمر ، وخفى الدليل ، فقدهم أن يحكم على يهودى بالسرقة وقد علم الله براءته فنبهه القرآن إلى خطورة الحكم قبل صدوره : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا » .

البحث مستمر